جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربى
للدكتور زكى مبارك

— ١٨ —

ترفّق الأستاذ أحمد أمين بالأدب العربى فقال : إنه يرى من الإنصاف أن يستثنى أديبين اثنين « كان أدبهما أدباً تحليليًّا واضحاً » وهما ابن الرومى وابن خلدون

وكذلك انتهت دنيا الأدب العربى ، الأدب الذى لم ينجب غير شاعر واحد وكاتب واحد فى أمد طويل دام نحو خمسة عشر قرناً ، وتعاونت فى تكوينه أمم أسيوية وأفريقية وأوربية ، واستطاع أن يؤثر فى الآداب اللاتينية والعبرية والفارسية والتركية والهندية ، وصار له فى أكثر الجامعات الأوربية كرسى خاص

أحمد أمين يستثنى ابن الرومى من بين الشعراء ، ويستثنى ابن خلدون من بين الكتّاب لسبب آخر غير الإنصاف ؛ فقد سمع أن العقاد وضع كتاباً عن ابن الرومى ، وسمع أن طه حسين وضع كتاباً عن ابن خلدون ، ومن الواجب عليه أن يعجب بالشاعر الذى أعجب به العقاد، والكاتب الذى أعجب به طه حسين

وكيف أقفر الأدب العربى فى تلك الآماد الطوال فلم ينبغ فيه غير أديبين أولهما شاعر ، وثانيهما كاتب ؟

إن أحمد أمين لو حكم بأن مدينة واحدة مثل القاهرة أو دمشق أو بغداد لم تنجب فى جيل واحد غير أديبين اثنين لكان من المسرفين ، فكيف وهو يكيل الأحكام الأدبية بأوسع المكاييل فيحكم بأن الأدب العربى فى جميع عصوره ، وفيما انتظم من أمم شرقية وغربية لم ينجب غير أديبين اثنين ؟

قد يقول إنه يقصد الأدب الذى يقوم على التحليل والاستقصاء

إن قال ذلك فنحن ندعوه إلى دراسة الأدب العربى من جديد . فالطريقة التحليلية عرفها شعراء العرب منذ أقدم العهود وعليه أن يرجع إلى معلقة طرفة ، ومعلقة لبيد ، وعينية أبى سويد وتائية كُثيِّر ، ولامية الكميت ، وتائية دعبل ، ودالية مسلم ابن الوليد

الواقع أن الشعر العربى تغلب عليه النزعة التحليلية فى أكثر ما تعرض له من مقاصد وأغراض ، وانظروا كيف يحلل سعيد ابن حُميد فكرة النعى عن العتاب :

أقلل عتابك فالبقاء قليلُ ... والدهر بين تارة وعيلُ
لم أبك من زمن ذممتُ صروفهُ ... إلا بكيتُ عليه حين يزولُ
ولكل نائبةٍ ألمّتْ مدةٌ ... ولكل حال أقبلت تحويلُ
والمنتمون إلى الأخاء جماعةٌ ... إن حُصِّلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقتُ لتبكينّ بحسرة ... وليكثرنّ عليّ منك عويل
ولتُفجعنّ بمخلص لك وامق ... حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن — سبقتَ ولاسبقتَ — ليمضينّ
من لا يشاكله لديّ خليـــل
وليذهبنّ بهاء كل مروءة ... وليفقدنّ جمالها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودُّنا ... باقٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرةٌ ... فسلام يكثر عتبنا ويطول

فالشاعر فى هذه القصيدة يحلّل ويعلّل ويتناول موضوعه تناولَ من يدرك ما فيه من كليات وجزئيات ، وما زال ينتقل من العموم إلى الخصوص حتى وصل فى تصوير معناه إلى ما يريد

ولننظر كيف يقول الشريف الرضى فى استبقاء الصديق :

وكم صاحبٍ كالرمح زاغت كعوبه
أبي بعد طول الفخر أن يتقوما
تقبلتُ منه ظاهراً متبلّجاً ... وأدمج دونى باطناً متجهّما
فأبدى كروض الحزن رقّت فروعه
وأضمر كالليـــل الحذارىّ مظلما
ولو أننى كشّفته عن ضميره ... أقمت على ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطاً بالسوء إن نالنى يداً ... ولا فاغراً بالذم إن رابنى فما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح ... ومن حمل العضو الأليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه ... أقول عسى ضنًّا به ولعلما
صبرتُ على إيلامه خوف نقصه ... ومن لام من لا يرعوى كان ألوما
هى الكفّ مضّ تركُها بعد دائها
وإن قُطعت شانت ذراعاً ومعصماً
أراك على قلبى وإن كنت عاصياً ... أعزّ من القلب المطيع وأكرما
حملتك حمل العين لجّ بها القذى ... فلا تنجلى يوماً ولا تبلغ العمى

دع المرء مطوياً على ما ذممته ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطن للصغير من الأذى تعرض أن يأتي أجلّ وأعظما

فما رأيكم في هذا القصيد الجميل ؟

ألا ترون الشاعر ينقل الفكرة من وضع إلى وضع ، ويصنع بها ما يصنع المصور الذي يراعي دقائق المعاني ... وهو يضع اللوحة الفنية ؟ ...

إن الشاعر في هذه القصيدة أمامه غرض واضح الرسوم ، فهو يحلّل ويعلّل ليصل إلى أبعد ما يريد من الاستقصاء !

أليس هذا هو التحليل الذي يقصد إليه أحمد أمين ؟

وما رأيكم في قول الطغرائي وهو يحاور الحمامة الباكية :

أبكية صدحت شجواً على فنن فأشعلت ما خبا من نار أجفاني
ناحت وما فقدت إلفاً ولا فجعت فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليقة من إسار الهم ناعمة أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبهت بي في وجدي وفي طربي هيهات ما نحن في الحالين سيان
ما في حشاها ولا في جفنها أثر من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
يا ربة البانة الفنّاء تحضنها إن كان نوحك إسعاداً لمغترب
خضراء تلتف أغصاناً بأغصان
فقار ضيني إذا ما اعتادني طرب ناءٍ عن الأهل ممنوعٍ بهجران
أو لا فقصرك حتى أستعين بمن وجداً بوجد وسلواناً بسلوان
ما أنت مني ولا يَسْتيك ما أخذت يعنيه شأني ويأسو كلمي أحزاني
كلي إلى الغيم إسعادي فإن له منى الهموم ولا تدرين ما شاني
دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

فهل ترون هذه القصيدة من « الأدب التركيبي » ، وهو لفظ ثقيل اخترعه أحمد أمين ؟

أم ترونها قصيدة تقوم على تحليل المعاني ليخلق منها الشاعر صورة شعرية ؟

وانظروا قول ديك الجن وقد قتل معشوقته بيديه :

يا طلعةً طلع الحمام عليها فجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها
روّيتُ من دمها الثرى ولطالما روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
فوحقّ نعليها وما وطئ الثرى شيء أعزّ عليّ من نعليها
ما كان قتلها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن بخلتُ على الوجود بحسنها وأنفتُ من نظر العيون إليها

فقد شرح الشاعر فكرته أتمّ الشرح ، وصوّرها أكمل التصوير ...

وهل وصلت إلى أحمد أمين أخبار تلك الوصية الرائعة التي بعث بها العباس بن الأحنف إلى حجاج البيت الحرام ، وقد توقع أن يمروا بديار هواه

أنظروا إلى ذلك العليل ، وقد تمرد الداء ، وتعذر الشفاء ، وكلما عُصر الماء في فيه مجّه ، كما يصنع الطفل الوليد ... وقد ذهبت العلة بجمال نظراته ، وبريق بسماته ، وإن نودي لم يُجب بغير الأنين ... أنظروا إليه ! وقد تمنى جرعةً مُزجت بريق حبيبته يحملها الحجاج في زجاجة ، ولو أمكن أن تُنقل النظرة لرجاهم أن يحملوا إليه نظرة ، ولو خُلِق « الحاكي » في ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا إليه نغمة من نغماتها العذاب ، ولو مهر المصورون حينذاك لكلفهم أن يصوروا مشيتها في الضحى والأصيل ... أنظروا إليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند أهله ، فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم ... أنظروا إليه وقد أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه ، فإن صادفوه ميتاً فليرشوه على قبره ...

أنظروا كيف يقول :

أزوّار بيت الله مُرّوا بيثرب لحاجة مبتول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا على جَلَب للحادثات جليب
فإنا تركنا بالعراق أخا هوًى تنشّب رهناً في حبال شعوب
به سقمٌ أعيا المداوين علمه سوى ظنهم من مخطئ ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجهُ وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ألا إنها لو تعلمون طبيبي
وسيروا فإن أدركتم بي حشاشةً لها في نواحي الصدر وَجْس دبيب
فرشوا على وجهي أفق من بليتي يثيبكمُ ذو العرش خير مثيب
فإن نال أهلي ما الذي جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم لنشفيه من داته بذنوب
وإن أنتمُ جئتم وقد حيل بينكم وبيني بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

فهذا الشاعر قد قص قصة بلواه بأسلوب تحليلي رائع لا أدري كيف ينكره أحمد أمين

وما رأيكم فيما قال كثير في السخرية من عهود النساء :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن عليك شجاً في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك اللبان فإنها لآخر من خلانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وما حاجتنا إلى تحليل هذا المعنى وقد وفاه في بيت واحد من يقول :

فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس، كل غانية هند

* * *

إن أحمد أمين ينتظر شعراء يحللون، فهل أتاه حديث أبي العتاهية في الزهديات، وحديث أبي نواس في الخمريات، وحديث الشريف الرضي في الحجازيات، وحديث الكميت في الهاشميات، وحديث الأبيوردي في النجديات، وحديث البحتري في طيف الخيال، وحديث العباس بن الأحنف في الكتمان ؟

وهل عنده علم بوصف الربيع في شعر أبي تمام ؟ وهل سمع بأشعار ابن زيدون في الحنين ؟ وقل قرأ قصائد ابن خفاجة وابن حمديس ؟ وهل فتح الله عليه فنظر بكاء الرندي يوم سقوط الأندلس ؟ وهل قرأ قافية ابن الفارض ؟ وهل اهتدى إلى حائية ابن النحاس الذي يقول :

كم أداوي القلب؟ قلت حيلتي كلما داويت جرحاً سال جرح

وهل عرف مصير أشعار بديع الزمان الذي يقول :

رأيت الناس خداعاً إلى جانب خداع
يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعي

وهل قرأ قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية ؟ وهل عرف روميات أبي فراس ؟ وهل شهد موكب المعاني في مقصورة ابن دريد ؟ وهل درس رائية أبي صخر وعينية أبي ذؤيب ؟

أحب أن أعرف أين مكانك بين أدباء اللغة العربية، ياصديقي ؟ أحب أن أعرف أتجدُّ في دعواك أم تكون من الهازلين ؟ أقسم بالله وبالشرف أني لفي عجب من غفلة الأستاذ أحمد أمين عن ذخائر الأدب العربي، مع أنه أستاذ مسئول يتصدر لتدريس الأدب في أكبر معهد من معاهدنا الأدبية

ويزيد في الأسف أنه لم يكن كذلك فيما كنا نعرف من شمائله الذاتية، فقد استطاع أن يظفر بثقة ناس من كبار الأدباء منهم لطفي السيد وهيكل وطه حسين والمازني والعقاد والزيات والبشري، وسمعنا ثناء عليه في بيئات تزن أقدار الرجال، فمن أين وصل إليه مرض الحذلقة الذي كاد يضيفه إلى أدعياء الأدب والبيان ؟

أتريدون الحق ؟

الحقُّ أن أحمد أمين لم يوفق إلى الإجادة إلا في الموضوعات التي سار فيها على سَنَنٍ مسلوك مهّده العلماء من قبل

فكتاب «الأخلاق» له مصدر معروف؛ فهو في جملته وتفصيله وأصوله وفروعه تلخيصٌ لأيِّ كتاب أوربيٍّ في الأخلاق، ولو شئت لسقت الأدلة والبراهين

وفجر الإسلام وضحى الإسلام لها أصول من أبحاث المستشرقين عن المدنية الإسلامية، وفيهما توجيهات للدكتور طه حسين سأكشف أسرارها حين أشاء، وفيهما سرقات في شئون اجتماعية ونحوية، ولو شئتُ لقلتُ إنه نهب بعض آراء الأستاذ فلان، وهو يعرف من أعنى، وسيعرف كيف نجازيه بعد حين

بقي أحمد أمين «الأديب» الذي ينقل عن العقل والروح

فهل قرأتم له مقالة واحدة تشهد بأن له مواهب فيها أصالة وعُمق ؟

وكيف يصح ذلك، وهو يرى أن الأدب العربي لم ينبغ فيه غير شاعر واحد ؟

ومن هو ذلك الشاعر ؟

هو ابن الرومي، وإنما نص عليه بالذات، ليصح له اتهام الأرومة العربية بالفقر والإجداب ؛ فقد كان المازني كتب منذ أعوام أبحاثاً عن ابن الرومي، وقرر في تلك الأبحاث أن ابن الرومي ورث طريقة التحليل عن أجداده الأبعدين من اليونان

ولستُ بصدد الرد على المازني، الأديب العظيم، حتى أبحث من أين أخذ هذا الرأي، وإنما يحق لي أن أسأل : هل كان ابن الرومي أول شاعر عربي له أسلاف من اليونان ؟

ومن هو الجد اليوناني لطرفة بن العبد، وقد وصف ناقته

فى المعلّقة وصفاً هو النهاية فى التحليل والاستقصاء ؟

ومن هو الجد اليونانى لعمر بن أبي ربيعة وأشعاره تقوم على أساس من الحوار والتحليل والتمثيل ؟

ومن هو الجد اليونانى للشاعر لبيد وفى معلّقته تحليلٌ دقيق ؟

ومن هو الجد اليونانى للشريف الرضى وفى حجازياته أوصاف وتحليلات لم يهتد إلى مثلها سَدَنة الهياكل اليونانية ؟

وما رأى الأستاذ أحمد أمين فى أبي العلاء صاحب اللزوميات وصاحب رسالة الغفران ؟

ألا يرى أن أبا العلاء كان من الشعراء الذين يجيدون تحليل المعانى ؟

إن أبا العلاء قضى الشطر الثمر من عمره ، وهو يحاور نفسه ودنياه ، وقد وصل فى التحليل والاستقصاء إلى أبعد الحدود ، برغم المآخذ النفسية التى قيدناها عليه فى كتاب « وحى بغداد » فهو عندنا لا يقل عظمة فى تحليلاته ومحاوراته عن أكبر شاعر يبرع فى الحوار والتحليل .

أفلا يتفضل الأستاذ أحمد أمين بالاعتراف بمكانة أبي العلاء بين أقطاب الشعراء والمفكرين، فيضيفه إلى ابن الرومى وابن خلدون ؟!

يظهر أن الأستاذ أحمد أمين نسى أن أبا العلاء شغل الأستاذ العقاد والدكتور طه حسين ، فنشر الأول كتاباً عن أبي العلاء ونشر الثانى كتابين !

يظهر أنه نسى ذلك ، وما أنساه إلا الشيطان ، ولولا ذلك لاعترف بمكانة أبي العلاء رعايةً للعقاد وطه حسين ، إن عزت عليه رعاية الحق !

* * *

وأرجع فأقول : إن من التجنى على شعراء العرب أن نقول بحرمانهم من النزعة التحليلية ، فهم فى أغلب الأحوال يهتمون بتصوير المعانى ، ويُشعرون السامع والقارئ بأنهم يحاورون العواطف والقلوب والعقول ، وإليكم قول تميم بن جميل وهو يُرعد من خوف المرت بحضرة المعتصم :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً
يلاحظنى من حيثما أتلفتُ

وأكبر ظنى أنك اليوم قاتلى ... وما أمرئ مما قضى الله يفلت
وأىُّ امرئ يُدلى بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يُسلُّ علىّ السيف فيه وأسكت
وما حَزِنى أنى أموت ، وإننى ... لأعلم أن الموت شىء مؤقت
ولكن خلقى صبيةً قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنسى إليهم ... وقد خمّشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بنعمة
أذود الردى عنهم ، وإن متُّ موّتوا
فكم قائل لا أبعد الله داره ... وآخر جذلان يُسرُّ ويشمت

أليس هذا الشعر قائماً على الحوار والتحليل ؟ ؟

وما رأيكم فى قول ابن الزيات ، وقد ماتت زوجته وتركت له طفلاً يؤرقه بكاؤه فى هجمات الليل :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... يُعَيِّد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أمّ وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً فى الفراش تحثه ... بلابل قلب دائم الخفقان
ألا إن سَجْلاً واحداً قد ارَقته ... من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تَلْحيانى إن بكيتُ فإنما ... أداوى بهذا الدمع ما تريان
وإن مكاناً فى الثرى خُطّ لحده ... لمن كان فى قلبى بكل مكان
أحقُّ مكان بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عُجْتُ منتظران
فهبنى عزمتُ الصبر عنها لأننى ... جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القُوَى لا يعرف الأجر حسبةً
ولا يأتسى بالناس فى الحدثان
ألا من أمنّيه المنى وأعدّه ... لعشرة أيامى وصرف زمانى
ألا من إذا ماجئتُ أكرم مجلسى ... وإن غبتُ عنه حاطنى ورعانى
فلم أر كالأقدار كيف يصيبنى ... ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى

فهذه قطعة تحليلية رائعة ، وقد يلاحظ بعض القراء أن الصورة الشعرية فى هذه القصيدة متنافرة الأجزاء ، ولكن لا بأس فهذه القصيدة قد ضاعت أصولها مع الأسف ، ولم يبق منها غير هذه الأبيات وهى مما تخيّره ابن رشيق . وقد تعبتُ فى البحث عن أصل هذه القصيدة واستعنت بالأستاذ الشيخ محمد الخضرى بك مهذّب الأغانى فلم أصل إلى ما أريد ، ولكن هذه البقية الباقية من تلك القصيدة تشهد بقدرة ابن الزيات على تحليل المعانى والأغراض

* * *

أما بعد فأنتم تعرفون أن توضيح الواضحات من المشكلات؛ فالعرب فى أكثر أشعارهم قد تفوقوا فى عرض المعانى والمناظر والمشاهد ، ولهم فى تصوير الطبائع والشمائل قدرة لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر أو حقود

وليس من الحتم أن يسلكوا جميعاً مسالك ابن الرومى أو أبي العلاء ، فلكل شاعر مذهب فى الأوصاف والتعابير ، واختلافهم فى مذاهبهم ومناحيهم ومراميهم هو الشاهد على ما يملكون من الأصالة والذاتية

وما كان ابن الرومى أكبر شاعر عرفه العرب ، كما توهم أحمد أمين ، وقد صارحت الأستاذ العقاد بأني أرى الشريف الرضى أشعر من ابن الرومى فلم ينكر ذلك ، واكتفى بأن يقول إن مزية ابن الرومى عنده هى التفوق فى وصف الـ Caractères

وهذا حق ، فمزية ابن الرومى هى الحرص على درس أهواء الناس ، وهى مزية شاركه فيها أبو العلاء

وإذا كان ابن الرومى قد أفلح فى تصوير نحائز الخلق فهو مع ذلك لم يصل فى شعره إلى الرنة الموسيقية التى كان يتفرد بها البحترى ، ولم يصل فى الصنعة إلى منزلة أبي تمام أو مسلم بن الوليد ، ولم يحس الأنس بالحياة على نحو ما أحس ابن خفاجة أو ابن زيدون أو أبو نواس

ومن هنا نفهم أن للشعراء رسالات مختلفات ، فعمر بن أبي ربيعة فى بابه أشعر من ابن الرومى فى بابه ، وابن الرومى فى بابه أشعر من ابن أبي ربيعة فى بابه . والناقد الضيق الذهن هو الذى يضع للشعر غاية واحدة يحاكم إليها الشعراء

ومحاسن الأدب العربى ترجع إلى هذا التنوع الطريف ، فليس عندنا شاعر يُغْنى عن شاعر ، وإنما هم إخوة مختلفون فى المذاهب والأغراض ، ومن اختلاف الألوان التى قدموها تتم الصورة الكاملة للعبقرية العربية

ثم ماذا ؟ ثم يقول أحمد أمين : إن الأدب العربى ليس فيه إلا كاتب واحد يجيد التحليل هو ابن خلدون

* * *

وسنرى فى المقال المقبل خطأ ما ادعاه هذا الزميل مع الدعاء له ولنا بالهداية والتوفيق ، وإنا أو إياه لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، والله المستعان على حيرة الفكر فى أهل هذا الزمان

« للحديث شجون »

زكى مبارك

شركة مصر للغـــزل والنسج

تقدم هدية الشتاء

أجمل المنسوجات القطنية والكتانية

وأفخر أصواف البدل

فانللات . تريكو . جيرسى . جوارب . ناموسيات . بشاكير . فوط الموائد والشاى

وفيها جمال النوع واللون والقومية